من أجل تطوير الكتاب اليمني

(3-3)

هشام علي

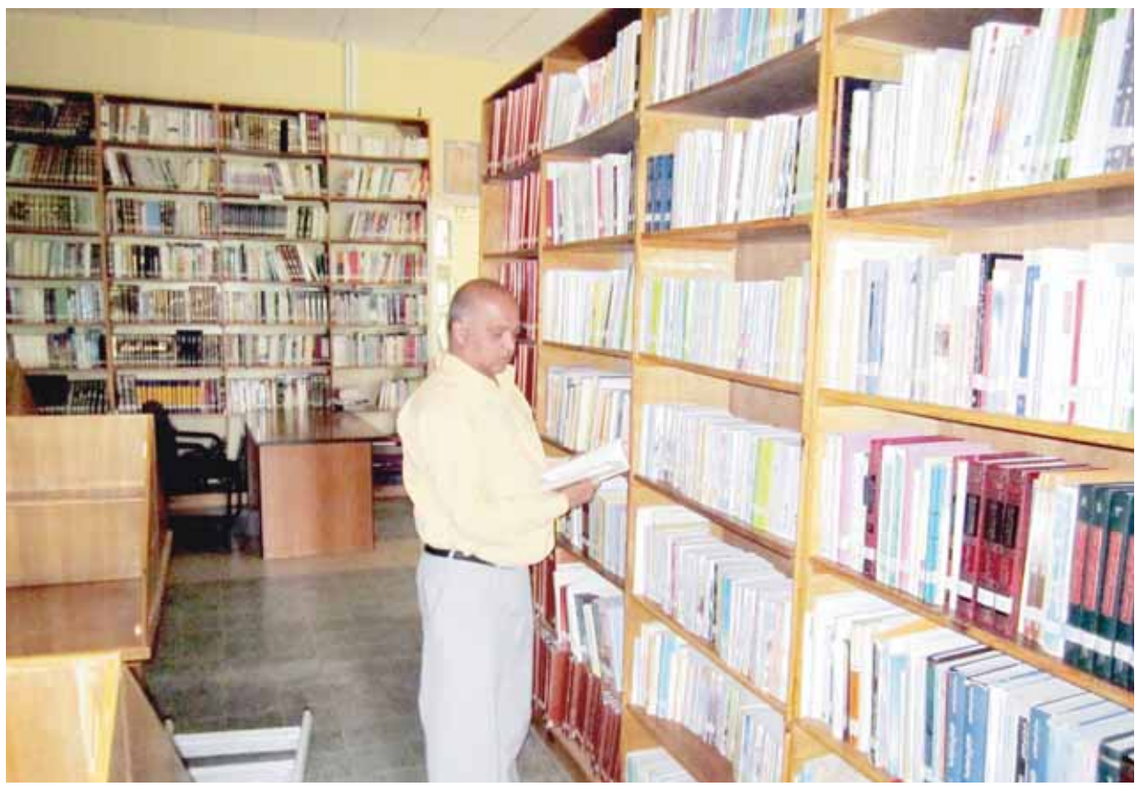

3- القراءة والمكتبات

لا يكتمل الحديث عن الكتاب إلا بحضور القارئ. وإذا كنا قد عرضنا للكتاب اليمني الذي بدا في الظهور على شكل مطبوع منذ بدايات القرن العشرين، وكانت هذه البداية محدودة ومتعثرة، من حيث عدد الكتب ونوعيتها، فإن أوضاع القراء لم تكن أحسن حالا، لاسيما إذا تذكرنا النسبة العالية للامية التي كانت تتجاوز 60% من عدد السكان في شطري اليمن، والمستويات التعليمية المحدودة في المدن التي لم تكن تتجاوز الصفوف التعليمية الأساسية، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية للموظفين التي تجعل الكتاب أمراً ترفياً وليس حاجة مجتمعية أساسية.

ومع ظهور التعليم في مدينة عدن، بدأت المكتبات التجارية في الظهور بشكل محدود، وقد ركزت على الاهتمام باستيراد الكتاب العربي ولعبت دورا مهما في نشر الثقافة العربية، في مواجهة المشروع الاستعماري الانجليزي والإدارة الهندية التي كانت تحاول نشر الثقافة الانجليزية ولغتها.

وكانت مكتبه الحاج عبادي "دار الكتب العربية" رائده في هذا المجال، حيث كانت تستورد من مصر ولبنان بالإضافة إلى مكتبة منشي غلام.

وظهرت المكتبات العامة في عدن، فقد أقامت بلدية عدن مكتبة عامة كبيرة في مدينه عدن، سميت في وقت لا حق مكتبة، مسواط وكان فيها عدد كبير من الكتب العربية و الإنجليزية. وهي اليوم مخصصة لكتب الأطفال، لكنها تعاني من الإهمال، لاسيما أنها قد تحولت إلى مخزن تابع لإدارة الأراضي، وتحتاج لإعادة تأهيل وترميم لتستعيد دورها كأول مكتبة عامة في اليمن.

وفي بداية الأربعينيات ثم افتتاح المجلس الثقافي البريطاني في عدن وقد ضم مكتبة كبيرة ضمن مكونات الأخرى.

وكانت المكتبات المدرسية ضمن المكونات الأساسية في كل مدرسة متوسطة أو ثانوية، وكانت ساعات محدودة في جد الدراسة للمطالعة في الكتبة.

بالإضافة إلى دروس القراء المقررة في النهج الدراسي، وكانت كتب القراءة في أول الأمر مأخوذة من الناهج المصرية أو اللبنانية، ثم شكلت لجنة من المثقفين والأدباء اليمنيين لتأليف كتب القراءة أو اختيار المواد المناسبة التي كانت تسهم في تنوير العقل وتنميته وحب القراءة بسبب جودة وسلامة اختيار المادة المقرة في دروس القراءة.

ونلاحظ هنا أن المسئولين في التربية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي كانوا ينهجون نهجاً سليماً باختيار المثقفين والمفكرين للإسهام في المناهج الدراسية التي تعتبر قضية وطنية وليست مسألة خاصة بالتربويين والمختصين، رغم أهمية هؤلاء في وضع المناهج ولكن توسيع أفق الرؤية ضروري أيضاً، لاسيما في دروسي القراءة والأدب.

ونحن نلاحظ اليوم أن كتب القراءة لم تعد تشجع على القراءة، فقد غابت لذة القراءة عنها، واختلاطها بدروس النحو والعلوم الدينية والصحة وغيرها، رغم أن لكل من هذه المناهج مفرداتها وكتبها، وتحت نهج ربط القراءة بالمجتمع أصبح كتاب القراءة في السنوات الأولى يهتم بالأمراض الشائعة والنظافة والأسواق وغيرها من المسائل العامة، التي قد تعطي إرشادات عامة، لكنها لا تخدم درس القراءة ولا تحببها للأطفال كمادة قائمة بذاتها.

فكتاب المطلعة لا يحتوي على حكايات، والقصائد المختارة تقليدية وأقرب إلى الصنعة. رغم وجود نماذج شعرية رائعة مثل أشعار ومسرحيات الشاعر أحمد شوقي التي يستطيع الأطفال حفظها وتقديمها على خشبة المسرح أيضا ومن التجارب المتميزة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي , تجربة المكتبات المتجولة , حيث كان هناك عدد من العربات تجر قاطرات تحتوي على كتب ثقافية متنوعة , وكانت تذهب إلى عدد من القرى والمناطق القريبة من مدينة عدن لتقييم عددا من الأيام وتتاح خلالها لأبناء المنطقة فرصة لقراءة واستعارت الكتب , وكان ثمة أنشطة موازية تحملها تلك العربات , مثل شاشة عرض سينمائية , تقوم بعرض الأفلام التسجيلية أو التعليمة أو بعض أفلام " شارلي شابلن" , وحب رسائل تستخدم لجذب الجمهور إلى المكتبة والكتاب , لم تدم تجربة المكتبات المتجولة طويلا , وقد توقفت تماما في منتصف الستينيات . ومن التطورات السلبية في مجال المكتبات , في مجال المكتبات , إغلاق المكتبات المدرسية وتحولها إلى غرف دراسية , إلغاء ساعات القراءة المكتبة بسبب ضغط الدوام في اليوم الدراسي الذي أصبح قصيرة لآن الدوام في المدارس أصبح على فترتين أو ثلاث فترات . هكذا تخلت المدرسة عن وظيفة من أهم وظائفها , تعليم القراءة وتنمية حب المطالعة للكتب العامة خارج نطاق المقررات الدراسية.

ينبغي الإشارة إلى بعض المظاهر الايجابية التي برزت في السنوات الأخيرة حيث ازداد عدد المكتبات العامة وانتشرت في بعض المدن كما بادرت بعض مؤسسات المجتمع المدني بدعم من وزارة الثقافة والصندوق الاجتماعي للتنمية بإنشاء مكتبات للأطفال ولكن هذا التطور لا يوازي احتياجات المجتمع للثقافة. إن هذه المقاربة لقضية القراءة تظل عشوائية ومحدودة، إذ لا توجد إحصائيات لأعداد المترددين على المكتبات العامة، واستبيانات تهتم بتجديد اتجاهاتهم في القراءة وكتبهم المفضلة. كما لا توجد دراسات ميدانية لتقييم تجربة معرض الكتاب التي أصبحت منتظمة ومتعددة ويرتادها أعداد كبيرة من المهتمين بالكتاب , وتصل مبيعاتها إلى مبالغ هائلة . إلا أن هذه الإحصائيات التقديرية العامة لا تقدم مؤشراً كافياً على العلاقة بالكتاب ونوع القراءة . والحاجة ملحة لإقامة دراسات ميدانية في هذا المجال لتحديد طبيعة رواد المعارض ونوعهم والفئة العمرية وغيرها من المعلومات التي يمكن أن ترسم لوحة عامة عن القراءة والقراء .

4- نحو سياسة وطنية تنويرية للكتاب وانتشاره

حاولت في العرض السابق أن ارسم لوحة بسيطة للمشهد الثقافي الخاص بالكتاب ونشره، وثقافة القراءة والمطالعة، وغيرها من المواد المتعلقة بالكتاب، باعتباره وسيلة ثقافية مهمة ولتنمية المجتمع وثقافته، ودور القراءة والمجتمع القارئ في تكوين التجربة الديمقراطية وتحقيق نجاحها.

فالقراءة تعني التنوير وتكفل الحق في الاختيار، والإنسان الذي لا يقرأ لا يستطيع أن يختار، فهو غير مستوعب لبرامج الأحزاب أو الأفراد الذين ينتخبهم، ويكتفي بوضع الإشارة أمام الصورة أو الرمز الانتخابي الذي يوصونه بانتخابه.

هكذا نلاحظ أن تنمية القراءة تعني تنمية المجتمع وتطوره، ولذا تبرز الحاجة إلى وضع سياسة وطنية للكتاب اليمني وتطويره باعتباره رافعا للثقافة بصورة خاصة، وللمجتمع بصورة عامة، وقد رأينا أن الكتاب لم يحظ بموقع مناسب في بلادنا، وأن علاقتنا بالكتاب كانت متأخرة، ولهذا كانت النهضة الثقافية متأخرة أيضا.

ومن المؤسف أن الثقافة بشكل عام، والكتاب أيضا، يعانيان من التهميش والتأجيل أو الإرجاء، في برامج التمنية وفي برامج الأحزاب السياسية وفي خطط المحكومة وسياساتها.

فالمسألة الثقافية ألا تزال خارج المدار العام لتحولات المجتمع والسياسة، وهذا هو السبب في إننا لا نزال نتعثر ونخبط خبط عشواء في مساراتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لا نحتكم إلى العقل والتنوير في مسارنا، ولا نهتدي بأنوار الثقافة والمعرفة.

أن النقاش حول الكتاب واقتراح سياسة عامة لتعزيز دوره ومكانته في المجتمع، يصب في صميم العملية الوطنية الجارية في بلادنا لا صلاح السياسة والمجتمع، وصياغة عقد اجتماعي جديد ينشئ فضاء رحبا للحرفة والفكر والإبداع , ويضمن الحق في الاختلاف وحرية التعبير , ويفتح أمام الجميع للمساهمة في صيانة المجتمع الجديد وبنائه .

ومن هذا المنطلق , أخلص في هذه الورقة إلى تقديم بعض الأفكار التي تساهم في صياغة تصوّر لسياسة عامة لتطوير الكتاب اليمني وتنمية القراءة والاهتمام بالمؤلفين ووعيهم .

ولا شك أن هذه الأفكار سوف تغتني بما يضيفه إليها المحاورون والمعلقون من المثقفين والباحثين وذوي الخبرة والتجربة من الناشرين وأصحاب المكتبات والمهتمين من القراء .

وقبل أن نطرح الأفكار والمقترحات بشأن صياغة السياسة الوطنية لدعم الكتاب وتنمية القراءة , أضع بعض الأهداف العامة لهذه السياسة , لتصبح معالم أساسية للعمل ومعايير ضرورية لتقييم التنفيذ :

1- توفير المناخ اللازم لتحقيق سياسة ثقافية تدعم إنتاج الكتاب وتوزيعه وانتشاره .

2- تعزيز قيم التنوع والاختلاف وحرية الفكر والتعبير .

3- دعم الإنتاج الفكري والعلمي والإبداعي وتطوير البحث العلمي ووضع الإجراءات القوية لحماية حقوق المؤلف .

4- الاهتمام بطباعة الكتب وتطويرها ودعمها , وتهيئة البيئة المناسبة لإنتاجه ودعمه وتحقيق انتشاره في الداخل والخارج .

5- تشجيع القراءة وتنميتها وتعزيز العلاقة بالكتاب وانشاء المكتبات العامة , والمكتبات في المدارس والمراكز الثقافية والشبابية .

6- تشجيع حركة الترجمة وتطويرها لمواكبة الفكر العالمي واتجاهاته

ان صياغة سياسة وطنية للكتاب اليمني وتعزيز دوره التنويري في المجتمع هي مهمة عامة لا يقتصر تحقيقها على وزارة الثقافة وحدها بل ينبغي أن تساهم الجهات ذات العلاقة من الوزارات (مثل الإعلام , التربية , التعليم العالي , المالية ,...) ومنظمات المجمع المدني واتحاد الأدباء والكتاب بالإضافة إلى القطاع الخاص والأحزاب والمنظمات بحيث تغدو قضية الكتاب والقراءة مهمة عامة يشارك الجميع في تحقيقها.

ولهذا أضع هذه الأفكار والمقترحات في سبيل صياغة سياسة ثقافية لتطوير الكتاب وتنمية القراءة , لتصبح جزءاً من السياسة الثقافية الوطنية بشكل عام , التي تهتم بصيغتها وتحقيها وزارة الثقافة مع الجهات الأخرى الحكومية وغير الحكومية .

أولاً : في مجال التأليف والنشر

1- الاهتمام بتحسين أوضاع المؤلفين وحماية حقوقهم الفكرية ووضع التشريعات الخاصة بالتفرغ للعمل الفكري والإبداعي

2- تقديم الدعم المادي لنشر بعض المؤلفات وفقاً لمعايير وأولويات تحددها وزارة الثقافة ضمن خطة عامة للنشر .

3- اعتماد سياسة محددة لشراء الكتب بأسعار تشجيعية للمؤلفين ,وبطريقة تضمن كرامة المؤلف وتبعده عن آلية البيع والشراء

4- توفير اعتمادات مالية لتنمية القراءة وترويجها واستحداث إدارة مختصة في وزارة الثقافة تعنى بمتابعة المكتبات العامة ومستوى القراءة .

5- إقامة المؤتمرات والندوات المتخصصة حول الإنتاج الأدبي والفكري .

6- منح جوائز تشجيعية سنوية في المجالات الفكرية والأدبية ومنح جوائز للكتب المتميزة في الطباعة والإخراج الفني .

7- إصدار ببليوغرافيات بالإصدارات السنوية .

8- الترويج للكتاب ووضع برامج إعلامية لعرض الكتب ومناقشة محتوياتها .

9- تنظيم حملات للتوعية بحقوق المؤلف والتعريف بها لتوعية الجمهور بضرورة حماية حقوق المؤلف وعدم اقتناء المواد الثقافية المزورة .

10- إنشاء الإدارة الجماعية للعناية بحقوق المؤلف وتوعية المؤلفين وأصحاب الحقوق بأهمية الانضمام للإدارة الجماعية لحقوقهم .

11- تفعيل عمل الجهات الرسمية المعنية بحماية حقوق المؤلف , من أجهزة مدنية وعسكرية وقضاة ووضع الآليات اللازمة لمنع الاعتداء على هذه الحقوق .

12- استحداث أحكام قانونية لدعم سعر الورق والأحبار المستخدمة في طباعة الكتب .

13- تعزيز دور اتحاد الناشرين للقيام بمهماته على أكمل وجه في طباعة الكتب .

14- تشجيع تأسيس شركة أو شركات توزيع بمستوى عال من الكفاءة والاحتراف .

15- حث الناشرين على مقاطعة شركات التوزيع سيئة السمعة التي تقوم بأعمال القرصنة والتزوير .

16- اعتبار الكتاب سلعة مختلفة عن باقي السلع التجارية وليس له مردود مادي عال , ولذلك ينبغي التعامل معه بطريقة استثنائية وتخفيف الضرائب والرسوم المفروضة على صناعته .

ثانياً : في مجال تنمية القراءة والمكتبات .

1- تحسين ميزانية وزارة الثقافة بشكل يسمح بتطوير عملها وأداء دورها المطلوب في مجال القراءة وتنميتها .

2- إقامة حملة وطنية من أجل القراءة , تقودها وزارة الثقافة وتشمل إقامة فعاليات خاصة بتنمية القراءة , مثل أسابيع القراءة في المدارس وإقامة معارض صغيرة للكتاب في المدارس , وتنظيم زيارات لطلبة المدارس إلى المكتبات العامة .

3- إصدار كتيبات ونشرات توزع على الكبار والصغار تحث على القراءة وتبين أهميتها في تنمية المجتمع وتطوره .

4- دعوة المؤسسات الإعلامية , والمرئية والمسموعة , على الاهتمام بالكتاب والقراءة وإعداد برامج للتشجيع على القراءة .

5- تشجيع إعداد وعرض مسلسلات وقصص للأطفال وإعداد برامج خاصة لهم تتضمن قراءة ومناقشة كتب معروضة للأطفال .

6- إقامة النوادي وجمعيات القراءة ودعمها بالكتب والبرامج .

7- تطوير مناهج التدريس والاهتمام بتنمية القراءة وتكوين الفكر النقدي المستقل .

8- اختيار نصوص القراءة والأدب بصورة جاذبة ومحفزة للمطالعة

9- اعتماد ساعة للمطالعة والمكتبة في المنهج الدراسي .

10- إنشاء المكتبات المدرسية في جميع المدارس وتجهيزها بالكتب المناسبة .

11- التنسيق مع إدارات الحكم المحلي بشأن إنشاء مكتبات عامة في كل مديرية وتزويد المكتبات بالكتب والمجلات .

الزئبق

زياد السالمي

ارفع ستارك عن قرارك
من كتاب الخلد ينفلق البياض
فتىً يقبّلُ زهرك الناريّ في عرق الشتاء ..
كقهوة المحزون في شفة السكارى
حين يغلبهم نعاس التيه كنت..
وكنت كالنعناع تمنح كأس وحشتنا السكينة
للندى أزهاره ولناظريك الانتظار
وللقصيدة دمعها العلويُ تؤوي ظله
أنّى تشاء
فجدْ بمكنون السماحة بسمةً
بادلهم الأزهار بالأشواك
قايضهم رجوعك بالحنين .
هي الوجوه مدينتين من الضغينة
دمعتين على الرصيف
وعقدةً كانت على صوت الغريب
بسيمياء الحال تفرض زهوها صرفاً يمانياً
مقاماً زئبقيّ الانتماء
تمدُّ ألفتها إلى قلب الندى سكناً
تفتّق من رخام الانتفاء
لها تفاصيل الرمال وديدبان الانبهار
الماء في عين الحقيقة شاردٌ عنها
بملح الأوفياء
كأنها جبلٌ من الفولاذ
قد حلّتْ على أكتاف عزمك كي تصير لأمرها
فعلاً مضافاً للشموع
وقفت منطفئاً
على أيامها الحبلى
بشدّك أزرها في الحزن تسبر كنهها زيتاً
فمرّتْ دون أن يذكى بها نار الوفاء
على نزيفك في السلام مضتْ مصعّرةً
وإن لمستْ سلامك في النزيف
تحرّكتْ أذنابها غيضاً تعظ على أناملها
وتخفي نابها الليليّ في ثوب الدعاء .
رأتْك باخع المرمى تفتّشُ
عن ضريحٍ قرمزيٍّ لاستراحتك الحزينة
سادراً في هاجس الإمكان
حرفاً زاهداً في الاستواء .
فطب من القلق المعوّذِ بالإرادة ،
فالتجارب أثبتت :
أن التقنُّعَ لا يشكّل نبضه رفضاً
ولا يلوي عنان الانتشاء .

جذور الحضارة

إصدارات

كانت الإمبراطورية الرومانية، مركزا للعالم المتقدم خلال فترة طويلة من الزمن، وإيطاليا الحديثة هي، من حيث النسب، وريثة تلك الإمبراطورية العريقة. وهناك العديد من المؤرخين الذين اعتبروا أن روما ظلّت في واقع الأمر، أسيرة التاريخ الروماني الإمبراطوري، ما جعلها تتسم بقدر كبير من الجمود، بعيدا عن التحولات التي عرفها العالم الحديث بشكل عام.

ويذهب الأستاذ في جامعة فرجينيا الغربية، جوشوا ارتور، إلى البحث عن جذور النظام الفاشي الذي أقامه موسوليني، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين إلى أصول رومانية إمبراطورية. وهذا ما يكرّس له كتابه الذي يحمل عنوان "الكشف عن جذور الحضارة". ويتمثل موضوعه الرئيسي في الماضي الروماني لإيطاليا الفاشية، مثلما جاء في عنوانه الفرعي.

يبين المؤلف انه يعود أصل كلمة فاشية إلى تعبير إيطالي هو فاشيو، يعني الحزمة، والتي تمثّل شعار الفاشية، وأحد رموز السلطة في روما القديمة . وأخذت به مجموعة شبه عسكرية، غداة نهاية الحرب العالمية الأولى، بغية إسماع صوت المحاربين القدماء، الذين أحسّوا بالحرمان كونهم لم يستطيعوا التمتع بتوسع حدود الإمبراطورية الذي كانوا وراءه. وتحوّلوا نحو الحياة المدنية ووضعوا أنفسهم في خدمة أرباب العمل الكبار، من أجل قمع العمّال، وانضمّوا في إطار حركة سياسية شعارها: "القناعة والطاعة والقتال".

أما الأفكار الرئيسية لتلك الحركة، فتمثلت في القول إن قيم الحدود معرّضة للخطر، والأمة مهددة، والديمقراطية وهم خادع، ذلك أن نظاما سلطويا يستطيع وحده أن يحقق الثورة الوطنية التي تصنع إنسانا جديدا، والفرد لا قيمة له. فالجماعة هي كل شيء، وأخيرا، القائد يقرر والشعب ينفذ. وهذه الأفكار كلها، وجدت ترجمتها في نسخة متجددة، إلى هذه الدرجة أو تلك، مع نظام بينيتو موسوليني الفاشي في إيطاليا. ويشرح المؤلف أن روما الفاشية في عهد موسوليني، كانت متأثرة إلى حد كبير، برؤية راديكالية للحداثة، جرى فرضها خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. ويقدم في هذا السياق، العديد من الأمثلة، عن انتماء الفاشية الإيطالية إلى الماضي الروماني.

وأن ما يعرف بالفضائل الفاشية المتمثلة خاصة في الانضباط واحترام التسلسل والنظام، إنما تجد منبعها الأصلي في روما الإمبراطورية. ومن ثم إن الإنسان الفاشي، الإنسان الجديد، حسب القاموس المستخدم في ظل موسوليني، نسخة من الإنسان الروماني، وتجسيد لفضائل الرجولة التي كان عنوانها: "المواطن-الجندي"، الذي كان ركيزة أساسية لقيام وتوسع الإمبراطورية الرومانية. ومن الأفكار التي سادت في روما القديمة، تأكيد قادتها وأباطرتها على توسيع رقعة نفوذها، لتشمل حوض البحر الأبيض المتوسط، بجنوبه وشماله الأوروبي.

ومثل هذه الفكرة وجدت ما يقابلها في إطار الحداثة الفاشية الإيطالية لدى موسوليني، الذي طمح إلى إقامة منظومة متوسطية يكون هو نفسه على رأسها. وبهذا المعنى، يرى المؤلف أن الإمبراطورية الرومانية كانت في أصل نشوء نزعة تجاوزت حدود إيطاليا، لتأخذ بعدا أوروبيا أو نظاما أوروبيا جديدا، إلى جانب السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط.

وفي الوقت نفسه، يشرح المؤلف، أن روما أو "رومانينا"، كما شاعت التسمية القديمة، خدمت لدى الفاشية الإيطالية باعتبارها مرجعا لعدد من الأفكار التي شاعت في الفكر الفاشي. وفي مقدمة تلك الأفكار، الخشية من انحسار السكان الأصليين، والاضطراب على خلفية عنصرية .

يسوق المؤلف، على مدى فصول الكتاب، قراءة لمحاور اهتمام الفاشية الإيطالية "الموسولينية"، على ضوء الإرث الذي تركته روما القديمة، مشيرا إلى أنه لم يكن محض صدفة، أن موسوليني تبنّى طريقة التحية الرومانية، كعنوان لطموحه، في أن يكون وريثها الحقيقي، ورجل بناء "إمبراطورية متوسطية جديدة".

ويرى المؤلف، أن الاحتفاء بـ"الانتماء الروماني"، هو في عمقه، محاولة لـ"بعث العالم الحديث"، عبر الفضائل الرومانية القديمة، للانضباط واحترام الهرم الاجتماعي والسياسي.

المؤلف في سطور

يعمل جوشوا ارتور، أستاذا للتاريخ في جامعة فرجينيا الغربية في الولايات المتحدة الأميركية. حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو. أولى اهتمامه الرئيسي لدراسة تاريخ أوروبا الغربية والوسطى وحوض البحر الأبيض المتوسط.

الكتاب: الكشف عن جذور الحضارة، الماضي الروماني لإيطاليا الفاشية - المؤلف: جوشوا ارتور - الناشر: جامعة كورنيل 2012 - الصفحات: 232 صفحة - القطع: المتوسط